الأندلس في الاستشراق الإسباني

اعداد
د/ رشا غانم
مدرس الأدب والنقد
الجامعة الأمريكية ـ مصر

أولا:المقدمة:

يهدِف بحثي المعنونُ" الأندلس في الاستشراق الإسباني""إلى تسليط الضوء على مكانة الأندلس في الدراسات الإستشراقية الإسبانية. وسبب اختيار موضوع بحثي هو الكشف عن أصداءالأدب الأندلسي على الأدب الأوربي مبينا التأثيرات في المنتج الأدبي الأوربي والمنابع التي انتهلوا منها أو استوحوها أو تأثروا بها.

وقد اعتمدت في دراستي – هذه – على المنهج التكاملي "وهو يأخذ من كل منهج كممارسة نقدية مركبة تجمع بين المعطيات الفنية والتاريخية والأبعاد النفسية والاجتماعية،والعقدية للارتكاز على رؤية شمولية واحدة"[١] .

ولما كانت أهمية بحثى هذا ترجِع –فى رأيي– إلى أنه محاولة ضرورية لبيان الأثر الاستشراقي لفضل العرب على الثقافة الأوربية في إطار محاولات جادة ومستنيرة لتصحيح المفاهيم والكشف عن القيمة الكامنة في التراث العربي الأندلسي.

- **مدخل عن مكانة الأندلس في الاستشراق الإسباني:**

إن أوربا تنتهي عند جبال البرانس عبارةٌ قالها الكاتبُ الفرنسي "الكسندر ديما" مهاجما إسبانيا فانبرى المفكرون الإسبان للرد عليه ولم يجدوا في تاريخ وطنهم ما يفاخرون به أروبا غير فترته الإسلامية. التي سجلهاالمستشرق الإسباني"خوليو ربييس

(١) عبد العزيز عتيق،،في النقد الأدبي، ،بيروت،دار النهضة العربية،،ط ١ ،١٩٧٢،ص ٣٠٨.

روبيو" ولد ١٩٤٤م يقول : "إن بدايةَ التدهورِ العربي في إسبانيا لم يقف دون تألق الحضارة الإسلامية وهو شيء مثير ،ومن اللافت للنظر أن الحضارة تقدمت بشكل فريد في عصور التدهور السياسي؛ لأن "اللغة العربية هناك كانت مرادفة للعلم والبلاغة، فدراسةُ اللغة العربية لم تقتصر على المسلمين فمسيحو الأندلس أنفسهم انتهى بهم الأمر إلى التحدث والتعبير بهذه اللغة وكان اليهود كذلك أيضا حيث انصهر سكانها فى بوتقة الحضارة العربية من خلال المساجد الاسلامية التى كان يدرس بها الرهبان واليهود ومجالس الأدب العربى التى كان يعقدها الخلفاء على عاداتهم العربية""[٢].

المستشرق الإسباني آسين بلاثيوس (١٨٧١-١٩٤٤م) فقد كان له دورُ كبير في التعريف بتراث العرب العظيم في الأندلس وسبقه كثيرون من المتخصصين في الدراسات العربية والأندلسية منهم:خوليان ريبيرا ،وآنخل بالنثيا،وجارثيا جوميث،وبدرو مارتينيث وغيرهم.

نجد أن خوليان ريبيرا (١٨٥٨-١٩٣٥م قد أبان "عن أن المسلمين الذين فتحوا الأندلس لم يكونوا كالرومان الذين غزوا أوربا ببربرية ووحشية ومزقوا إسبانيا شر ممزق، بل جاء العرب ؛ لينقذوا إسبانيا من براثن الظلم والطغيان، وتعايشوا معهم، وأدى ذلك التعايش إلى التزاوج بين العرب والإسبان، وارتقت الحياة رقيا طبيعيا، في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وكان السبيل إلى الوصول إلى المناصب الكبرى متمثلا في حفظ القرآن ودراسة السنة والفقه وعلوم العربية؛ فأقبل الإسبان على ذلك واستمتعوا بهذه العلوم حتى ترددت في دولة الأندلس إبداعات في العربية ألفها أناس من أصول إسبانية[٣].

([٢])خوليو رييس روبيو ،الأندلس بحثا عن الهوية الغائبة ،ت: غادة عمر طوسون ورنا أبو الفضل ،القاهرة، المركز القومي للترجمة ، الطبعة: الأولى ٢٠١٤ م،ص٢٤.

([٣]) الطاهر مكي: دراسات أندلسية، ،ص١٧٣.

وقد كشف ريبيرا في أثناء بحثه عن ديوان "ابن قزمان" أصول الشعر البروفسالي الذي ظهر في جنوب فرنسا" [٤] حيث تأثر الشعر الأوربي بالشعر الأندلسي وخاصة فن الموشحات والزجل الذي ابتكره شاعر يدعى مقدم بن معافي القبري الضرير(٢٢٥-٢٩٩هـ)،وقد استقى الشعراء التروبادور البرفنساليون من الموشحات،وانتشر هذا القالب الفني في الأوساط الأدبية في أوربا، فقد صاغوا كلماتهم على موسيقى الزجل الأندلسي وما زالت آثار الموشحات والزجل باقية في ألحان أوربا وموسيقاها خلال العصور الوسطى إلى اليوم خاصة في الأغاني الشعبية الفرنسية المعروفة باسم "الروندو"، وهناك مقطوعات شعرية فرنسية راقصة سارت على موسيقى الشعر الأندلسي مثل: مقطوعات الشاعر جيوم التاسع الذي شارك في الحروب الصليبية سنة ١٠٩٤م ميلادية وعاد سنة ١١٢٦ ونظم قصائد على غرار الموشحات والزجل الأندلسي مع تغيير في بعض الأشياء كالغصن والقفل والمركز وكثير من هذه المصطلحات الفنية.

يعد فن الموشح والزجل من الفنون الشعرية التي ولدت في البيئة الأندلسية حيث "عكف ريبيرا على دراسة موسيقى الأغاني الإسبانية ودواوين الشعراء "التروبادور "" وهم الشعراء الجوالة في العصر الوسيط في أوروبا فانتهى من دراساته المستفيضة هذه إلى أن الموشح والزجل هما" المفتاح العجيب الذي يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التي صُبت فيها الطرزُ الشعرية التي ظهرت في العالم المتحضر إبان العصر الوسيط" كماأثبت انتقالَ بحور الشعر الأندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية، إلى أوروبا "عن نفس الطريق الذي انتقل به الكثير من علوم القدماء وفنونهم .

(٤) الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، القاهرة، دار المعارف ط٣، ١٩٨٧،ص١٩١.

فالزجل يتكون من أدوار كل دور يتكون من مطلع أو مركز ومن ثلاثة أبيات أو أكثر متفقة القافية،فيما بينها تسمى الأغصان،وبيت آخر أو أكثر هو القفل،وقافيته ووزنه من نفس قافية ووزن المطلع وقد ظل هذا الطراز الشعري باقيا في صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى وقد ترجم آنخل بالنثيا (١٨٨٩-١٩٤٩م) مقطوعات زجلية منها للشاعر البروفنسالي"كونت بواتييه"الذي يعد من أشهر شعراء التروبادور بقوله[٥]:

إن لي شوقا للغناء
ولهذا سأنظم أنشودة أتغنى فيها بآلامي
ولكنى لن أكون عاشقا

أما الموشحة فنظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين على هيئة الوشاح فالموشحةهي الطريقة المهذبة للزجل ولكن بإسلوب فصيح ومن المقطوعات التي استمد منها"ربيرا"دراسة الموسيقى في العصور الوسطى"أغنية العربيات الثلاث"[٦]في ديوان بلاثيو:

في جيان
عائشة وفاطمة ومريم
ثلاث عربيات بائعات الجمال
ذهبن يجمعن الزيتون
فوجدته قد جمع في جيان
عائشة وفاطمة ومريم

(٥) آنخل بالنثيا:تاريخ الفكر الأندلسي، ت: د. حسين مؤنس، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية ط١ ١٩٥٥، ج٢ص٦١٥.
(٦) آنخل بالنثيا:تاريخ الفكر الأندلسي، ، ج٢ص٦٢٩.

ثلاث عربيات فياضات بالحيوية
ذهبن يجمعن التفاح
فوجدته قد جمع في جيان
عائشة وفاطمة ومريم

وأظهر المستشرق "بيدال" أن فكرة الحب النبيل التي تسود الغزل في الشعر البروفنسالي نجد أصلها في الشعر الأندلسي حيث يرى أن هذه الفكرة قد عرضها ابن حزم في طوق الحمامة وأنها كانت فكرة سائدة عند أهل الظاهر في نظرتهم إلى الحب[٧].

فكتاب طوق الحمامة لابن حزم يعد دراسة نفسية لمشاعر الحب بين الرجل والمرأة والذي تمكن قراءاته في الروسية والفرنسية والإنجليزية باعتباره تجارب إنسانية؛ فأصول نظرية ابن حزم الفلسفية مبثوثة في كتاب البدور الزاهرة للأصفهاني واتكأ كما يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون على النظرية الإغريقية التي ترى أن "الحب تعاسة مادية، وقوة طبيعية، لا مهرب منه، أعمى لا عقل له ولا غاية".

فمثلا يقول:ابن زيدون[٨]

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فالغزل الأندلسي "يصور من أحوال النفوس ما لا يصوره غيره؛ لأنه يكشف عن دخيلة المحب، وسريرته، كما أنه لا يمثل عاطفة قائله وحده بل يمثل العاطفة الإنسانية الخالدة، فيهز مشاعر القراء من كل جنس وقبيل، وهو – أيضًا– من أقوى فنون الشعر

(٧) صابرعبد الدايم: الأدب المقارن بين التراث والمعاصرة،القاهرة،،دار الكتاب الحديث، ط١، ٢٠١٠،ص٩٢.

(٨) ابن زيدون،ديوانه،ت:شرح وتعليق: كامل كيلاني،عبد الرحمن خليفة،مطبعة البابي الحلبي،ط١ ١٩٣٢، ،ص٦٠.

العربي انطباعا بالبيئة وتمثيلا لأحوال المرأة كجمالها وتجملها وأخلاقها، مما لا يصوره بقية فنون الشعر إلا ناقصًا وهو إلى ذلك كله أبرز فنون الشعر تأثيرًا فيما بعده من العصور معنى وخيالا وأسلوبًا، وأبعدها عن النحل والوضع؛ لأنه لا يؤيد عصبية قبلية، ولا يعضض نزعة حسبية"[٩].

ولابن الزقاق موشحة غزلية يقول[١٠]:

خُذ حديثَ الشوقِ عن نفسي وعن الدمعِ الذي همعا
ما ترى شوقي قد اتقدا
وهمي بالدمع واطردا
واغتدى قلبي عليكَ سدى
آه من ماءٍ ومن قبسِ بين طَرفي والحشا جمعا
بأبي ريمٌ إذا سفرا
أطلعتْ أزرارُه قمرا
فاحذروه كلما نظرا
فبألحاظِ الجفون قِسِيْ أنا منها بعضُ مَنْ صرعا
أَرتضيه جارً أو عدلا
قد خلعت العُذرَ والعَذلا
إنما شوقي إليه فلا
كَمْ وكم أشكو إلى اللَّعس ظمأي لو أنه نفعا

(٩) أحمد الحوفى، الغزل في الشعر الجاهلي، بيروت، دار القلم، ط١، ١٩٦١ ص٣- ٤.
(١٠) ابن الزقاق:ديوانه، ت: عفيفة محمود ديراني، بيروت، دار الثقافة، ط١، ١٩٦٤،ص٢٩٩.

فالموشحة كما نرى تبرز شوق الشاعر وحنينه فيذكر لهفه وهيامه،وموته حبا ووجدا في محبوبه ، وهذا الشوق المتقد يجعل الأنفاس حارة ملتهبة،ودموع العين سخية تبث ألامها وأحزانها، وحرارة الشوق في القلب متقدة،والمحب بين ماء دموعه المنهمرة،ونار شوقه المشتعلة لا يستطيع إطفاء نار قلبه ،ومن خلال هذا الشجن الغنائي الذي نلمح فيه أصداء تأثر الشعراء كـ "جيوم التاسع"،"وكونت بواتييه"وغيرهم ممن ساروا في أشعارهم على موسيقى الشعر الأندلسي

شعراء الأندلس لم ينجرفوا وراء عاطفة الحب في شهوانية الرذيلة بل كان غزلهم عذريا نسبة إلى قبيلة عذرة التي يفضل رجالها "الحزن الحلو، المستسلم للشوق، للحب الأفلاطوني على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة، ويعرفون كيف يموتون حبا قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأفراح العفيفة"[١١].

وامتد هذا التأثير عند الشاعر "بترارك"صاحب ديوان :أشعار إلى سيدتي لورا[١٢]

ويعد تجسيدا فنيا لتأثر الشاعر بالنبض الأدبي عند العرب والمسلمين فأغانيه في هذا الديوان تتسم بعذوبة الحب ورقة الغزل واستلذاذ الشجن،فقد عبر في هذه الأشعار عن حبه لمحبوبته،وعن أمله وبأسه،،وصب فيها حزنه العميق لموتها يقول في مقطوعة "لا سكينة لي في الليل"[١٣]

تملك على الحبيبة لبي
لكني استمد من ذلك راحتي
فمن معين واحد نابض متأنق
ينبع غذائي من حلو ومر

(١١) الطاهر مكي: دراسات أندلسية، ،ص١٧٦.
(١٢) صابرعبد الدايم: الأدب المقارن ،ص٩٣.
(١٣) صابرعبد الدايم: الأدب المقارن ،نفس الصفحة.

إن بدا واحدة فيها شقوتي وراحتي
وهكذا أجاهد في الحب جهادا غير محدود
فأحس كل يوم ألف موت وألف حياة
ألا ما أبعد الطريق إلى سكينتي وسلامي.

قد كانت هذه النظرة متأثرة بنظرة الإسلام للحب الذي يحرص أن يكون طاهرا عفيفا،" فمن أحب فعف فمات مات شهيدا".واتفق "بوكاشيو "مع بترارك في هذه النظرة المثالية في الحب عند العرب وكذلك في وضع المرأة العربية في ظل الحضارة الإسلامية(١٤)

كما أن الشاعر الإسباني "خوان رامون خمينيث "هو صاحب النظرية التي تقول أن الشعر الأندلسي والشعر الصوفي الإسباني المتأثر بمتصوفة الأندلس هو أصل الرمزية(١٥).

ذكر الشاعر خوان الشاعر الإسباني "أدلفوا بيكر"من إشبيلية الذي يعد أبو الشعر الحديث في إسبانيا ويقول عنه"إن بيكر يعبر بصوته الجدران وأجواز الفضاء هذا الصوت العادي والأسطوري صاحب نغمة مثل قيثارة سان خوان دي لاكروث ليس من السهل أن تتكرر في الشعر الإسباني فيما بعد إنه شعر خليط من الشعر الشعبي الأندلسي ومن شعر الشمال الأوربي ،شعر يجمع بين العنصر القوطي والعنصر العربي وهو شيء بارز عنده من أي شاعر إسباني آخر(١٦).

(١٤) صابرعبد الدايم: الأدب المقارن ،ص٩٤.
(١٥) حامد أبو أحمد: دراسات في الأدب المقارن،القاهرة،ط١، ٢٠٠٣،ص٩٣.
(١٦) حامد أبو أحمد: رائد الشعرالإسباني الحديث خوان رامون خمينيثنالقاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط١،٢٠١٠،ص ٢٣٥، نقلا عن خ.ر.خمينثن،العمل الممتع،ص١١٠.

أكد على هذه الفكرة السابقة أيضا الباحث الإيطالي"خوسيه مياس فايكروما "حيث يرى أن الشعر الإيطالي الديني في العصر الوسيط والذي يطلق عليه اسم المدائح وينظم باللهجة الدارجة كان على صلة وثيقة بعروض الزجل الأندلسي[١٧].

كما نظم الشاعر "خوان دل أنثيا "مقطوعات دينية تتضح فيها طريقة الشعر الأندلسي ومنها هذه المقطوعة مترجمة إلى العربية[١٨]:

لا تغب عني فإني أموت يا سجاني
لا تغب عني فإني أموت
عجل بالمجئ...حتى لا أخسر حياتي
وفيك لم يضع إيماني ...يا سجاني
فك عني هذه القيود...وفيها قاسية آلامي
حتى تغيب عني...تقضي على...يا سجاني

وأعلن المستشرق الإسباني "أسين بلاثيوس"أن "دانتي في الكوميديا الإلهية تأثر بالإسلام تأثرا عميقا واسع المدى يتغلغل حتى في تصويره للجحيم والجنة،وكان لقصة المعراج ،ووصف كتب التفسير لها،وكذلك لكتاب "المعرا ج"الذي ألفه "ابن عربي في وصف رحلة المصطفى–صلى الله عليه وسلم– إلى السماء ،وكذلك لرسالة الغفران لأبي العلاء المعري[١٩]

ونرى الأثر الصوفي الإسلامي للشاعر جوته الألماني في كتابه:الديوان الشرقي[٢٠]. فقد اهتم فيه بقصص الحب العربية فموضوعه وديدنه الحب فيقول:

---

(١٧) صابر عبد الدايم: الأدب المقارن ،ص٩١.
(١٨) السابق ،نفسه.
(١٩) السابق،ص٩٤.
(٢٠) داود سلوم ،دراسات في الأدب المقارن التطبيقي، بغداد، دار الحرية للطباعة، ط١ ،١٩٨٤، ص١٠٩.

ليلى،ومجنون الفلا
نعما بحبهما الطويل
هذي بثينة مع جميل
هويا على مر النسيم

كما كان المستشرق "مينينديس بيلايو "كان أول من انتبه إلى وجود الخرجة ، أى آخر قفل فى الموشح ، باللغة الرومانثية ، وهى العامية الإسبانية ، هو في أواخر القرن الماضي.

فالأندلس حاضرة بقوة في الذاكرة الإسبانية والأدب الأندلسي كان له عبقه في الأدب الأسباني وخاصة فني(الموشح والزجل).

ثانيا :المبحث الأول(أشهر المدارس الاستشراقية الإسبانية وجهود المستشرقين الإسبان).

الأندلس صاحَبَهُ حضور قوي في واقع الأمة الإسبانية حيث نلتفت إلى أيدلوجية خاصة تميز بها المستشرقون الإسبان ألا وهي دراسةُ الأدب الأندلسي أثناء فترة الحضارة الإسلامية في الأندلس التي امتدت إلى ثمانية قرون دون سواه من الآداب الأخرى فكان ذا إنجاز معرفي وفير، لأن الكثير من الإسبان الذين يهتمون بالد ارسات العربية الإسلامية يفضلون تسميتهم بالمستعربين " " بدل" المستشرقين"،نظرا" لأنهم كلهم نذروا حياتهم لدراسة الثقافة العربية والإسلامية بالأندلس."،دون أن يهتموا بلغات شرقية أخرى كالفارسية والتركية والأوردية وغيرها. كعلامة على هوياتهم العلمية المميزة لهم عن بقية زملائهم من المستشرقين الغربيين.

نقف لرائد الاستعراب المعاصر المستشرق "بدرو مارتينيث مونتابث" (ولد ١٩٣٣م) الذي ما زال مستمرا في بناء جسور التواصل بين الثقافتين العربية والإسبانية. حيث اهتم بالواقع المعاصر للعالم العربي ،والإسلامي وركز اهتمامه على الشعر

العربي الحديث، فقرأه ودرسه وحققه وترجمه ، وهو أيضا بعد خمسين عاما من اهتمامه بدراسة اللغة والثقافة العربية يقول: اللغة العربية والثقافة العربية بكل ما تحملانه هما حقيقة يُمثلان الحصن الوحيد المتبقي للعرب، وعليهم أن يحافظوا بجدية ووعي وتحد على هذا الحصن وأن يحموه من الذوبان والانهيار، لأنه يعني حينذاك انهيارهم وقال مقولته الشهيرة""إن إسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام وحضارته، وكانت بذلك باعثة النور والثقافة إلى الأقطار الأوروبية المجاورة المتخبطة آنذاك في ظلمات الجهل والأمية والتخلف.

دعونا نقترب من عالمهم أكثر وخاصةَ الذين أنصفوا منهم الحضارةَ الإنسانية في الأندلس باسكوال دي جايانجوس (١٨٠٩– ١٨٩٧) الذي شغل كرسي الدراسات العربية في جامعة مدريد ومن أهم منجزاته كانت الترجمة الإنجليزية التي قام بها لقسم كبير من نفح الطيب للمقري وقد نشر هذه الترجمة في مجلدين كبيرين بعنوان " تاريخ الأسر الحاكمة في اسبانيا " ، وكان أبرز تلاميذه هو فرانسيسكو كوديرا (١٨٣٦– ١٩١٧) وكانت مدرسة فرانسيسكو كوديرا من أشهر مدارس الاستشراق الإسبانية التي ضمت عددا كبيرا من المستشرقين منهم "خوان أندريس" الذي يعدُ من أوائلَ من أشاروا إلى الأثر العربي في الثقافة الإسبانية خاصة والأوربية عامة وأفاض أن حضارة الأندلس كانت وراء يقظة أوربا.

المستشرق كوديرا أعطي الاستشراق الإسباني دفعة قوية إلي الأمام ويعد كوديرا هو مؤسس الاستشراق الأسباني الحديث ، وقد أدي به إتقانه للعربية إلي شغل كرسي هذه اللغة في جامعتي غرناطة ثم سرقسطة ثم أصبح أستاذا للعربية في جامعة مدريد ، وكان كوديرا يري أنه لا سبيل لدراسة التاريخ الإسلامي لإسبانيا إلا بعد نشر التراث الأندلسي بعد تحقيقه علي نحو علمي ، ولم تكن في إسبانيا آنذاك مطابع عربية ولا

عمال مهرة قادرون علي صف الحروف ، فقام هو نفسه بصياغة الحروف العربية ، واتخذ من داره مطبعة ومن تلاميذه عمالا ، وهكذا استطاع أن يخرج المجلدات العشرة من " المكتبة العربية الإسبانية "" منها: كتب ابن الفرضي وابن بشكوال وابن الاباروغيرها.

ومن مدرسة كوديرا "المستشرق جايا نجوسي "[٢١] يعد المؤسس الحقيقي لمدرسة الاستشراق الإسباني الحديثة. فقد كون له تلاميذ كثيرين متحمسين للدراسات العربية الإسلامية في إسبانيا خلال القرن الـ١٩.

ولد في إشبيلية في ١٨٠٩ وتوفي في لندن ١٨٩٧. درس العربية في باريس على يد المستشرق سلفا ستردي ساسي ثم واصل دراساته للغة العربية عندما عاد إلى إسبانيا. ولمزيد من إتقان العربية قيل إنه رحل إلى شمال أفريقيا وأتقن العربية ولغات أخرى عدة منها الإنكليزية، ثم عين مترجماً في وزارة الخارجية عام ١٨٣٣ ثم أصبح أميناً عاماً للمخطوطات العربية في المكتبة الملكية وقام بدراسة مخطوطات عدة، ولخّص وثائق عدة تتعلق بتاريخ إسبانيا وجغرافيتها. وفي ١٨٤١ عين قنصلاً لإسبانيا في تونس. ثم سافر إلى لندن وأقام فيها مدة كلف فيها فهرسة المخطوطات والوثائق الإسبانية في المتحف البريطاني، وساهم في تحرير بعض دوائر المعارف والدوريات، ثم عاد إلى مدريد عام ١٨٤٣ فعين أستاذاً للغة العربية في جامعتها وواصل جمع الكتب والنقود العربية. واشترى في رحلته إلى شمال أفريقيا مخطوطات عربية أضيفت إلى مجموعته التي كانت تضم ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مخطوط نفيس منها نسخة من رحلة ابن بطوطة. عين عضواً في أكاديمية التاريخ عام ١٨٤٤ ثم صار مديراً للتعليم العام

(٢١) عبد الحميد صبحي،الاستشراق الإسباني في القرن التاسع عشر،مقال بمجلة الحياة اللندنية ،تشرين الأول،٢٠١٦م.

وعضواً في مجلس الشيوخ، ثم حصل على إجازة أربعة أشهر لدراسة المخطوطات في الإسكوريال، ثم أنشأ مدرسة للأبحاث الأندلسية.

وفيما يتعلق بأعمال جايا نجوسي وبحوثه، فإن إنتاجه الغزير يدعوننا إلى تصنيفه في مجالات عدة: المخطوطات، إذ درس مجموعة مخطوطات عربية في مكتبة مجمع التاريخ الإسباني وفهرس المخطوطات الإسبانية في المتحف البريطاني. التراث الأندلسي، وله «تاريخ المماليك الإسلامية في إسبانيا» في مجلدين وترجم فيه قسماً كبيراً من النفح للمقري وكتاب «وصف قصر الحمراء وبيان أثاره وتفسير كتاباته الحجرية»، و «تاريخ ملوك غرناطة» بالإسبانية، و «اللغة والأدب عند المورسيكيين»، وبحث عن صحة الصحيفة الإخبارية للرازي في صفة الأندلس مع ترجمة لها إلى الإسبانية، كما نشر «تاريخ فتح الأندلس» لابن القوطية، ورسالة في فضل الأندلس وذكر علمائها مقتبسة من النفح للمقري، ورحلة الغزال سفير ملك المغرب إلى كارلوس الثالث، وقد قام بهذه الرحلة عام ١٧٦٩ إلى غرناطة.

وبالنسبة إلى التراث العربي بعامة ترجم جايا نجوسي «كتاب كليلة ودمنة» ونشر «مقامات الحريري» مع شروح وتعليقات بالإنكليزية عام ١٨٩٦، كما اهتم بالأدب والتاريخ الإسباني في العصر الوسيط فنشر قصيدة في مدح «محمد صلى الله عليه وسلم» ونشر كتاباً في عنوان «كتب الفروسية»، وأصدر كتاباً في عنوان «الكتاب الثائرون السابقون للقرن الـ١٥م»، وزود الترجمة الإسبانية لكتاب «تاريخ الأدب الإسباني» لتكنور Ticknor بتعليقات مستفيضة، كما قام بتحقيق الكتب الإسبانية الآتية: الغزو الكبير عبر البحار، رسائل الكاردينال سنيروس رسائل وتقارير من هرنان كوريتس إلى الإمبراطور شارل الخامس، رسائل اليسوعيين، رسائل ووثائق توضح تاريخ إنكلترا في علاقتها مع تاريخ إسبانيا خلال حكم الملك هنري الثامن في سبع مجلدات.

مثّل جايا نجوسي، بموسوعية معرفته واعتدال نظرته وموضوعية منهجه، بحق التيار الأول المتقبل والمنصف للحضارة العربية الأندلسية وفتح الباب على مصراعيه لتحقيق التراث الأندلسي من جهة ودراسة أدب الموريسيكين من جهة أخرى.

والمستشرق رودولفو خيل بن أمية توفى ٢٠٠٨م وقد أثرت جذوره الإسلامية، على فكره ودفعته إلى مصاف الوطنيين الأندلسيين .لقد شغلت هموم الوطن الأندلسي مساحة كبيرة من تفكيره وكتاباته رغم الهامش الضيق من الحريات المسموح بها في في عهد الجنرال فرانكو؛ لقد طالب بالحق الأندلسي واستعادة المورسكيين لحقوقهم التي أجبروا على تركها في إسبانيا بعد طردهم في القرن السابع عشر ، عند اندلاع الحرب الأهلية بإسبانيا سنة 1936 م، كان خيل بمصر الشيء الذي أعفاه من التعرض للاضطهاد والقمع الذي كان ضحيته وطنيون أندلسيون، على رأسهم رفيقه بلاس انفانتي "أب القومية الأندلسية المعاصرة"، هذا الأخير تأثر بخيل في القضايا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي للأندلس والشتات الموريسكي .

وكان المستشرق الإسباني خوان برنيط خينيس توفى ٢٠١١م استهواه التراث العربي الإسلامي فانجذب نحوه واستأثر به باحثاً، ومنقباً، ومترجماً ومؤلفاً، ومدرساً، ومدافعاً وكان يشغل أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها بجامعة برشلونة منذ ١٩٥٤م.

ومن المستشرقين الإسبان أيضا الذين أضاءت جهودهم كثيرا من مناحي التراث الأندلسي هم .

–سكوده لوثنا باردس .

ولد في غرناطة ودرس الفلسفة في كلية الآداب في جامعة غرناطة،عمل مستشاراً للثقافة والتعليم في الإقامة الإسبانية في المغرب، عيّن أستاذاً للغة العربية بجامعة غرناطة عام ١٩٤٢م، عيّن مديراً لمعهد الدراسات العربية بغرناطة وعمل رئيساً

لقسم الدراسات العربية في معهد الدراسات الإفريقية بمدريد، انتخب عضواً في مجمع الفنون الجميلة، له إنتاج غزير في مجال تحقيق المخطوطات وفي البحوث حول الشريعة الإسلامية وكذلك التاريخ الإسلامي والآثار الإسلامية.

– إميليو گارثيا گومث .

ولد في مدريد ودرس في جامعتها، عمل أستاذاً بجامعة غرناطة وبجامعة مدريد. تولى إدارة المعهد الثقافي الإسباني، زار سوريا ولبنان، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٨م، عمل سفيراً لبلاده في بغداد وفي لبنان، له دراسات عديدة في الأدب العربي وترجمات لبعض الشعر العربي إلى الإسبانية.

– بوش ڤيلا .

ولد في فيجراس عام ١٩٢٢م، درس في جامعة برشلونة فقه اللغات السامية وحصل على الدكتوراه من جامعة مدريد بعنوان (الإقطاع، مملكة الطوائف على عهد بنو رزين) عمل في تدريس اللغة العربية في كل من جامعتي برشلونة وجامعة سرقسطة، تولى منصب أستاذ مساعد للتاريخ والنظم الإسلامية بجامعة مدريد وعمل أمين مكتبة معهد الدراسات العربية بمدريد ودرّس التاريخ والنظم الإسلامية بجامعة غرناطة.

تولى رئاسة الجمعية الإسبانية للمستشرقين، وهو عضو جمعية أمريكا الشمالية لدراسات الشرق الأوسط، تركزت بحوثه في مجال الدراسات الإسلامية والجغرافيا والتاريخ كما اهتم بقضايا العالم العربي المعاصرة.

– فدريكو كورينته .

ولد في غرناطة في ١٩٤٠/١١/١٤م درس اللغات الشرقية في جامعة مدريد، حصل على الدكتوراه في علم اللغة، عمل مديراً للمركز الثقافي في القاهرة ١٩٦٢م–١٩٦٥م، تولى منصب أستاذ اللغة الإسبانية في مدرسة الألسن العليا بجامعة عين

شمس في الفترة نفسها، وترأس قسم اللغة الاسبانية بجامعة محمد الخامس بالرباط عام ١٩٦٥م–١٩٦٨م، عمل في جامعة فيلادلفيا أستاذاً للغات الشرقية والعربية، أستاذ كرسي اللغة العربية بجامعة سرقسطة منذ عام ١٩٧٦م.

ونأتي لمستشرقة رائدة في الاستعراب الإسباني هي "ماريا خيسوس فيغيرا "التي تتحدث العربية بطلاقة فقد اختارت الأكاديمية الملكية للتاريخ البروفيسورة ماريا خيسوس فيغيرا مولينز (الفيرول، أكورونيا، ١٩٤٥) كأكاديمية العدد وذلك لتغطية المنصب المفتوح الذي خلفته وفاة إيلوي بينيتو روانو، الذي كان يشغل الميدالية رقم ٣٣. هذا الاختيار تمّ بعد أن قام كل من سارافين فانخول وميغيل أنخل لاديرو ولويس أغوستين غارسيا مورينو والاكاديمية الملكية للتاريخ بالاضافة إلى الاكاديمية الملكية الاسبانية بترشيح البروفيسورة الأكثر حضورا بالمقارنة مع غيرها من الأساتذة ؛ لينضم اسم فيغيرا إذن إلى أسماء أخرى مثل كرمن إغليسيس كانو وخوسيفينا غوميث ماندوثا وكرمن سانث أيان، وأنريكيتا فيلا فييار وبيلار ليون كاسترو ألونسو. هذه الأكاديمية الجديدة والتي حصلت سابقا على منحة من منظمة خوان مارش، تعمل حاليا كأستاذة في قسم الدراسات العربية والاسلامية في جامعة كومبلوتانسي بمدريد، منذ سنة ١٩٨٣، حيث أشرفت على إدارة قسم الدراسات العربية والاسلامية على مدار ١٢ سنة ، كما قامت أيضا بتأسيس مجلة أناكال للدراسات العربية والاسلامية وأشرفت عليها في بداياتها.

في الوقت الحالي تدير مجلة " هيسبيريا، ثقافات المتوسط" وتساهم في إدارة مجموعة " آفاق الاندلس" تتركز أبحاث الدكتورة فيغيرا في مجال تاريخ الاندلس والتاريخ والمجالات العربية الإسبانية وتاريخ المخطوطات العربية بإسبانيا. ألفت ٥٥ كتابا، وقامت بتحقيق وترجمة وتأليف عدة كتب بالإضافة إلى التنسيق والمساعدة في كتابة أربعة أجزاء عن (ملوك الطوائف، المرابطين، الموحدين والنصريين) في كتاب " تاريخ

إسبانيا لمينينديث بيدال". كما كتبت حتى الآن حوالي ٢٥٧ مقالا علميا وفصول كتب وشاركت في تحرير "تاريخ إسبانيا" و "موسوعة الاسلام" و "قاموس السير الذاتية لتاريخ الاندلس"

ونستدل مما سبق أن المستشرقين الإسبان أدوا للتراث العربي والإسلامي ، خدمات لا تنكر سواء بأبحاثهم ودارستهم الجادة،ولما عرفنا الكثير عن الدواوين الشعرية ومبدعيها المغمورين والمشهورين على حد سواء، ولما كان لدينا إلمامٌ بفن الموشحات والزجل بشكل محكم ومتقن".أو بتحقيقاتهم له، واكتشاف مصادره،ونفض غبار الإهمال عن كثير من المؤلفات المهمة التي لولاهم ما رأت النور." فقد قاموا بجمع المخطوطات الأدبية الأندلسية شعرا ونثرا وتوثيقها متناً وتدويناً وتحقيقاً وأرشفة، وتأريخ معطياتها سياقاً وتحقيباً ومرجعاً، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية في مختلف لهجاتها المتنوعة، ودا رستها مضموناً وشكلاً ووظيفة؛ وذلك من أجل تحديد تطور الأدب الأندلسي، ورصد مجمل خصائصه الدلالية والفنية والجمالية، وتبيان

مختلف سياقاته التاريخية والسياسية والاقتصادية ،والاجتماعية والثقافية والدينية والنفسية والحضارية، كما خُصص للأدب الأندلسي بإسبانيا من مكتبات عامة وخاصة،ومعاهد متخصصة، وكراس جامعية، كما صدرت صحف ومجلات تعنى بالأدب الأندلسي تأريخاً وتصنيفاً ونقداً وبحثا في دارسته للأدب الأندلسي اهتماما بحقبة من تاريخ بلاده القومي، فهو تراث مشترك بين العالم العربي والحضارة الإسبانية نفسها حيث يمثلُ النتاجَ الفكري لهؤلاء العلماء بوصفه نتاجا " إسبانيا وإسلاميا في نفس الوقت "وبذلك حوَّل أولئك المستشرقون هؤلاء الأعلام وتراثهم الفكري إلى ثمرة من ثمرات الذات الإسبانية وهويتها.

ثالثا :المبحث الثاني دراسة تطبيقية للرواية الإسبانية المخطوط القرمزي لأنطونيو غالا [٢٢].

الرواية لا حدود نظرية لها، وتتسم بمرونة شكلية لا نهاية لها ولا حد...وأنّها نوع لا يخضع إلى قواعد ومواصفات ثابتة، وأنّ التحول والمرونة الفائقة هي أهم صفاتها، خصوصا من حيث هي شكل مفتوح يظل دائما في حالة صنع حيث تحمل رَجْع التاريخ وتقلّباته، وتوقظ أحقاباً عدة، تمخّضت عن أحداث ووقائع مثيرة حيث الاستبصار الروائي يخترق برهافة النوافذ المغلقة لعوالم خبيئة ولشخوص غائصة في عمق التاريخ مارست فعل الوجود بين براثن حروب مجنونة في عصور الظلام والتفاهة ، والحوار الفني الذي يملأ صفحات الرواية ويغني الحدث يخطّ عميقا الاتجاهات الفكرية لكل شخصية مع التكثيف للعالم الداخلي لهذه الشخصية والتقاط روح زمانها وذهنية عصرها بكل مافي داخلها من صراعات فكرية ودينية وسياسية وأخلاقية .

كما يشير أمبرتو إيكو إلى التصور الإبداعي الذي يجعل من النص فرجة معرفية لا تنتهي عند حد، أو يحول المعرفة إلى وضعيات إنسانية ترقى على الفردي، وتتجاوز اللحظة العرضية الزائلة لكي تلج العام. [٢٣]

لكن هذا لا يعني الاكتفاء بنسيج الخطاب الروائي وحسب؛ فما تحكيه الرواية يشير بالضرورة إلى معنى خاص، مرتبط بهوية الشخصية الروائية، وبالأحداث التي تقوم بها أو التي تقع عليها، وأن ذلك يجري في مكان وزمن أو محيط بشري اجتماعي له

([٢٢]) أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس، ، ترجمة رفعت عطفة، ورد للنشر، سوريا،ط١ ، ٢٠١١م.

([٢٣]) أمبرتو إيكو ، آليات الكتابة السردية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الحوار، سورية ، ٢٠٠٩، ص١٢

خصوصية ما. فكما تقول يمنى العيد: " بدون سؤال الحقيقي يبدو حقيقي الرواية أو حقيقي الفن سلطوياً مستبداً، وأحياناً مطلقاً"[٢٤]،

في إشارة إلى الأسلوب الإيحائي الذي تتحول فيه أحداث بعينها إلى حالة فنية، وهو ما يحتمه ضيق هامش الحريات المدنية والسياسية والخشية من عواقب الجهر. وهو ما تعلن الرواية في أكثر من موقع استعداد الروائي للتخلي عنه

ففي الأدب لا نكون فقط بإزاء أحداث أو وقائع خام، وإنما بإزاء أحداث تقدم لنا ضمن مستلزمات تعبيرية معينة"[٢٥] .

وعندما ننتقل إلى دراستنا للرواية المخطوط القرمزي نجد أن عمل الروائي الإسباني (أنطونيو جالا) في روايته: (المخطوط القرمزي: يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس)، وقد استثمر أنطونيو حقبة تاريخية لها حضورها التأثيري في القارئ المعاصر، ولا سيما في العالم العربي، وهي الفترة التي شهدت سقوط الأندلس بكل الهوامش الدلالية والنفسية والحضارية لهذا السقوط المدوّي. [٢٦]

إن لجوء الروائي لمثل هذه الحقبة من رواية "المخطوط القرمزي للتأثير على المتلقي، بتهيئة الأجواء والعوالم التاريخية لتحقيق أكبر قدر من الجوانب الإقناعية والتأثيرية والوجدانية معا؛ مما يساعد على جذب وتشويق وإمتاع يستجيب لها القارئ المعاصر.

([٢٤]) يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨. ص ٢٦، ص٣٣

([٢٥]) عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص٦٦٦.

([٢٦]) أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس، ، ترجمة رفعت عطفة، ورد للنشر، سوريا،ط١ ، ٢٠١١م.

ترفض غرناطة الأندلسية أن تغادر الذاكرة الاسبانية والعربية على الخصوص، فتنبعث بين الوقت والآخر؛ لتكشف عما كانت تخزنه من ثروة روحية وإنسانية فائقة الوصف ممثلة في رواية "المخطوط القرمزي" التيت تناول حياة أبي عبدالله الصغير آخر ملوك بني نصر في غرناطة وآخر ملوك العرب قاطبة في الأندلس، والذي سلم مفاتيح الحمراء في ٢يناير عام ١٤٩٢م للملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيلا. وبهذا أسدل الستار بصورة نهائية على الحضارة الإسلامية التي استمرت ثمانية قرون في شبه الجزيرة الايبرية، وكانت حلقة وصل بارزة بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب.

تتكون الرواية من مدخل عن أوراق وجدت في بداية المخطوط ،المخطوط القرمزيثم أربعة فصول هي،بمنجاة في الحديقة ،طيور الرحمة ،عالية وتتلألأ،كل موسيقى تتوقف"ورقة مضافة في نهاية المخطوط"في خمسمائة واثنتا عشرة ورقة من الحجم المتوسط.

وقد حصلت رواية المخطوط القرمزي على جائزة بلانيتا ١٩٩١ وهي من أهم جوائز الرواية في إسبانيا .

تبدأ الرواية بمقدمة قصيرة فيها بعض الحقائق وبعض الخيال. فأما الحقائق فهي أن بعثة فرنسية قامت بإجراء حفريات في مراكش سنة ١٩٣١. وكان موقع هذه الحفريات في مبنى جامع القرويين بهدف التعرُّف على مخططاته وتصميمه الهندسي، وقد اكتشف المنقبون وجود زيادة في مساحة الأساسات تخالف المساحة المتوقعة، وبعد التحري عثر على غرفة كانت قد شيدت في أحد الأساسات. وفي تلك الغرفة أخفيت بعض المخطوطات التي منها هذا "المخطوط القرمزي" الذي يضم يوميات آخر سلاطين بني الأحمر.

يحاول المؤلف، بطبيعة الحال، إقناعنا بأنه عثر على هذه اليوميات وأذاعها في الناس لا أكثر ولا أقل. وإمعانا في إضفاء طابع الحقيقة التاريخية على روايته استطرد في الإدعاء بأنه حاول قدر استطاعته التأكد من أن المعلومات التي أوردها أبو عبد الله في "مخطوطه القرمزي" معلومات صحيحة وتوافق التسلسل الزمني التاريخي، وأن الأشخاص الذين ذكروا فيها قد ذكروا بأسمائهم الحقيقية وليست الأسماء فيها مستعارة. حتى أن المؤلف يدعي . استكمالاً لهذا الجزء من استراتيجيته السردية . أن مقدمة المخطوط والملحوظات الأخيرة وجدت مضافة إلى الأصل وقد ألصقتا به في ضمامة واحدة.

ويكاد يغالي في ذلك حين يتوجه انطونيو غالا بالشكر إلى المؤرخين والإخباريين الذين أسهموا في كتابة تاريخ هذه الحقبة بمن فيهم السلطان الصغير نفسه. أي أن أنطونيو غالا زين لنا في هذا الكتاب قبول الفكرة التي انبثقت منها الرواية، وهي أن أبا عبد الله هو الذي كتب لنا قصة حياته بقلمه. على أوراق قرمزية اللون مما كان يستخدم في قصر الحمراء في أثناء ملكه السعيد بالأندلس.

وأبو عبدالله الصغير كان وما زال يمثل كنزا من كنوز الإبداع العالمي، وهو في ذلك يشبه شخصيات تنطوي حياتهم على أحداث درامية مثل انطونيو وكليوباترا، والمعتمد بن عباد، آخر ملوك بني عبَّاد في اشبيليةا. ولكن لعل شخصية أبي عبدالله الصغير هي أكثر هذه الشخصيات درامية وإثارة للشجن. فلم يخطئ عندما قال هذه الكلمات التي ينقلها التاريخ عنه: "أنا الأكثر سوء حظ من بني نصر، وها أانذا بمنأى عن الجميع سواء كانوا أحياء أو موتى. وأنا الذي فقدت حقي في أن أُنسب إلى سلالتي"[٢٧].

(٢٧)- أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي ،ص١٨

تعيد رواية المخطوط القرمزي صوراً أندلسية شتى إلى الذاكرة المعاصرة، الفصل الأول وعنوانه ،بمنجاة في الحديقة " يتناول طفولة ابي عبدالله وصباه من خلال علاقته بعدد من الشخصيات هي: المرضعة صبح وفايز البستاني وعمه يوسف والطبيب إبراهيم اليهودي، ونسيم الخصي وأخوه يوسف، وعمه أبو عبدالله الذي سمي فيما بعد بالزغل، وأمه عائشة وزوجته مريم. ومن خلال علاقة أبي عبدالله الصغير بهذه الشخصيات نطلع على خفايا قصر الحمراء في هذه المرحلة الأخيرة من دولة بني نصر. وتمضي الأحداث متصلة بخيط تاريخي يكشف عن احتدام الصراع بين مملكة غرناطة والممالك المسيحية، فضلاً عن المؤامرات والدسائس التي كانت تدور بين أعضاء الأسرة النصرية انفسهم. ونرى في هذا الفصل الأول كيف كانت أمه عائشة الموصوفة في كتب التاريخ بالحرة، حانقة على ابيه السلطان أبي الحسن بسبب زواجه من امرأة أخرى من أصل مسيحي تُدعى ثريا. وقد انتهى هذا الفصل بمؤامرة من أمه وبعض شخصيات القصر أدت إلى خلع أبيه وتوليته – أي أبي عبدالله – مكانه. ثم كانت حروب وفتن بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين المسيحيين. وقد أسر أبو عبدالله في معركة ضد المسيحيين بمدينة لوشا. ولكن هذا الأسر لم يمنع مساجد غرناطة من أن تعلن عن اسمه بوصفه السلطان الجديد.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان "طيور الرحمة" ويتناول حياة أبي عبدالله في الأسر، وما صحب ذلك من أحداث جسام، ومؤامرات وحروب. والفصل الثالث عنوانه "كبارهم وكانوا لا معين" ومعظمه يدور حول إقامة الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيلا لمعسكر قريب من غرناطة أطلقوا عليه اسم "سانتافي"، أي الإيمان المقدس، ومن هذا المكان جرت المفاوضات الطويلة بين الجانبين والتي أدت في النهاية إلى تسليم غرناطة.

الفصل الرابع والأخير وعنوانه "كل موسيقى تتوقف" وهو عن تسليم المدينة وما تلا ذلك من أحداث انتهت بذهاب أبي عبدالله وأسرته ومن معه إلى مدينة فاس في المغرب. وتقع الرواية في ٥٧٠صفحة.

من أهم ما تحويه الرواية تأملات ينسبها انطونيو غالا لأبي عبدالله الصغير، منها هذا التأمل حول المسجد الجامع في قرطبة وهو أحد أعظم مساجد الدنيا: "أن هذا الجمال لا يمكن أن يكون نتيجة حرب أو انتصار أو حتى نتيجة لثقافة بادئة، وإنما كان نتيجة سلام مقيم، واتجاه روحي بلغ أقصى مداه إنه ليس علمل شخصي، ولا مجموعة أشخاص، وإنما هو عمل فكرة رئيسية عن العالم. أي دين رفع هذه الغابة من الأعمدة لكي يحيط بنظرة المؤمنين ويعلو بها لا لتوجّه إلى أي احتفال، وإنما كي تتجه نحو إله واحد أحد؟[٢٨]

ومنها" لأبي عبدالله ذلك أن وجوده في أي مكان يصير دافعاً قوياً للتأمل. فهو يكتب تأملاته في المسجد الجامع، أو عندما يغادر قصر الحمراء، أو عندما كان يقدم على معركة حربية أو مناوشة. حتى أنه عندما ذهب إلى فاس ليمضي بقية حياته فيها، كتب عندما شاهد ما شاهد فيها: "إن المدن مثل النجوم تتأخر في الانطفاء حتى بعد أن تموت[٢٩]".

وعن "الوادي الكبير" وهو من معالم الطبيعة الأندلسية الخصبة، يقول أبو عبدالله: "ان نهر الوادي الكبير لم يكن أبداً للدفاع، بل كان مجرى للاتصال. ولم يكن

([٢٨]) أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي ص٥٥
([٢٩]) أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي ،ص٢٠٠

سداً، بل كان رابطاً. إن الشر أو الخير الذي جاء إلى الأندلس من جهة الشمال، وصل عن طريقه. ولكني لا أدري هل ما جاء من جهة الجنوب كان أسوأ أو أفضل؟[٣٠]

يستخدم أنطونيو غالا في المخطوط القرمزي تقنيات مختلفة. لا يمكن أن يأتي أبو عبدالله بعد خمسمائة سنة من سقوط الأندلس، ليذرف الدموع الساخنة عليها، أو يطلم الخدود ويشق الجيوب، وإنما لا بد أن يلجأ إلى نوع من التأمل تصير فيه العبرة أجدى من الدمعة، والتناول الشاعري أفضل من الانخراط في سلك المأساة باجترارها وإثارة النفوس حولها.وهذا ما فعله أنطونيو غالا وهو يتلبس شخصية أبي عبدالله الذي شاء له الحظ العاثر أن يغادر قصر الحمراء إلى الأبد، وأن يطلق زفرته الأخير وهو يغادر غرناطة من مكان يطل عليها يسميه الاسبان (زفرة المغربي) وقد تحول منذ فترة إلى مزار سياحي.

في "المخطوط القرمزي" أشعار كثيرة قد يكون بعضها لأبي عبدالله، وقد كان شاعراً، وقد يكون بعضها الآخر لأنطونيو غالا وهو شاعر بدوره. الرواية تستحق أن تنقل إلى العربية ولكن على من ينقلها أن يعود إلى الأصل العربي للنص الشعري إن وجد، كما لا بد أن يعود إلى دواوين أندلسية كثيرة ليرى إلى من يمكن أن يُنسب هذا النص الشعري، أو ذاك. ولا بد للعربي أن يمسك دموعه وهو يتجول في ذاك الفردوس المفقود، وبخاصة إذا قارن بينه وبين حاضرنا البائس!

هم وحدهم يعرفون كشف الآثار الخفية العالقة بكل كلمة وبكل لحظة خوف وسعادة هاربة"

ونلخص ما يلي

(٣٠) أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي /،ص٣٥٠.

١- تعيدنا المخطوطة التي تشكل جزءاً أساسياً من مكونات البنية السردية في هذا العمل إلى (المخطوط القرمزي): الرواية التي تقوم على حكاية أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة في الأندلس، الذي يكتب يومياته في مخطوط قرمزي مدفون، عثر عليه في فاس، دارِ هجرته التي استقر فيها ومات. إنّ أنطونيو غالا كاتب (المخطوط القرمزيّ) يتظاهر بأنه ليس في الواقع صاحب هذه الرواية، وهو نفسُه ما فعله سيرفانتس برائعته دون كيخوته (دون كيشوت) التي ادّعى فيها أنه قام على ترجمتها من المخطوطات التي حصل عليها من أحد النبلاء العرب الغامضين، واسمه السيد أحمد بن خليل/ سد هامت ابن خلي، رغم أنه لم يلتق قط بهذا الرجل

٢- تظهر حنكة مؤلّف "المخطوط القرمزي" بشكل لافت في اختراعه فكرة الحواشي والتعليقات المكتوبة، ولا يخفى علينا أن هذه الحواشي ما هي إلا حيلة استطاع المؤلف من خلالها أن يثري الرواية بمعلوماته التاريخية، من مثل ما يرد عن وسائل تعذيب استخدمتها محاكم التفتيش، تقول عنها ماسيكا أنها حقيقية ذكرتها جل المصادر التي اطلعت عليها، آخرها ما رواه أحد ضباط نابليون بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، حين أرسل حملته إلى إسبانيا. إضافة إلى القيمة الفنية التي أضفاها إليها، دون أن يجعل القارئ يحس أنه يتدخل أو يقحم نفسه بطريقة مفتعلة. بل إن جزءاً كبيراً من فحوى هذه الحواشي يدخل في إطار المتخيل الذي يساهم في إيهام القارئ أن ما يطالعه هو واقعي محض. في إحدى الهوامش تحت عنوان "من أوراق سيدي أحمد بن خليل المدعو غاليليو" تضعنا ماسيكا في أدق تفاصيل هذه الورقة، بما فيها من تداخل بأكثر من لغة وخط؛ حتى إنها تدخلنا في عدد الثقوب فيها، وتشرح لنا الطريقة الإيطالية في الترميم. وهو ما تكرر في الورقة الخامسة التي تصف فيها ماسيكا تشويهاً أصاب

فحواها تحيلها إلى صفرة تعمقت في بعض مواقعها، وتضع احتمالات أخرى كالرطوبة أو حشرة الورق التي طالت المخطوطة.

٣- تتعلق بالكاتب نفسه، وإنما يكون هدفنا في نهاية المطاف منسجماً والتوجه الرئيسي لهذه الدراسة، وهو كيفية استثمار المؤلف لعناصره الفنية بغرض التأثير على القارئ. آخذين بعين الاعتبار أن النص الأدبي أساساً هو حالة ثقافية يظهر بلغة فنية خاصة، تتشكل في سياق اجتماعي وسياسي خاص، بغرض التأثير على القارئ.يبدو الإطار العام الذي يضعنا العمل فيه صوت الكاتب هو امتداد لصوت سلالة بأكملها ،هناك تقنيات لجأ إليها الكاتب ليقول بأنه لا يقدم النسخة الرسمية التاريخية للأحداث أو الجانب الحقيقى منها فما يروى أنطونيو جالا فى روايته ليس كما ترويه كتب التاريخ عندما يقول هناك حدث ما تاريخى يقول أنا لست متأكدا من تاريخ هذا الشىء ولست على ثقة بجودة ذاكرتى فيما يخص هذا الحدث إذن فهو يقدم رؤيته الخاصة للتاريخ.

٤- هكذا يكتب أنطونيو غالا على لسان أبي عبد الله الصغير في « المخطوط القرمزي» الذي ترجمه إلى العربية رفعت عطفة:» أكتب على الأوراق القرمزية الأخيرة من كل ما كنت أخرجته من أمانة الدولة في الحمراء. ربما كان ذلك دافعاً مناسباً كي لا أكتب أكثر. لست واثقاً . تماماً كما هو الأمر مع كل الأشياء .، لكنني أعتقد أنني أتم اليوم الرابعة والستين من عمري[٣١].

٥- تستخدم الرواية تقنيات التلخيص المكانى والتركيز على مكان صغير يأخذ فى الاتساع تدريجيا حتى يشمل كامل المدينة ويخلق هذا المكان الصغير تداخلات بين شخصيات وعلاقات متداخلة كما يكتسب المكان بعدا سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

([٣١]) أنطونيو غالا،المخطوط القرمزي يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس،.،ص١٦

اهتم أنطونيو غالا بالمكان فى جميع أبعاده المادية والنفسية والاجتماعية وطرحا فكرة المكان المرجعى المتخيل المكان الداخلى والخارجى العام والخاص وكل الدلالات التى تتبع من استخدام المكان.

٦- والراوي هنا، لضلوعه في عملية الكتابة، ودوره في الحوادث، يتحرى الدقة في المعلومات، ويسعى للتحقق من صحتها. فلا يرسل الأخبار فيها إرسالاً وإنما "يراجع، بدقة، الوثائق التي وصلت إليه، ويقابل بينها، ويضيف ما سمعه في طفولته إلى ما يوحي له به تفكيره، وتمليه عليه تجربته القصيرة"..(٤) وهذه الصفة التي يتصف بها تعطي روايته للحوادث، وتعليقاته عليها وتفسيره لبعضها مصداقية أكبر، وتجعل حضور المؤلف الحقيقي، أنطونيو غالا، حضوراً خفيّاً لا يكادُ يُلحظ. والكتابة على مراحل تتخللها مدة انقطاع من حين إلى آخر تضفي أيضاً على السيرة طابعاً أكثر دقة لأن الكاتب يجد مُتَّسعاً من الوقت لمراجعة ما كتب. وتنقيحه والإضافة إليه. ولهذا يلح أبو عبدالله على هذه الفكرة، فيخبرنا في أحد المواقع أن سنواتٍ مضت توقف فيها عن الكتابة في هاتيك الأوراق، وأصبح لديه [الآن] متسع من الوقت للعودة إليها" ، وتمتاذ رواية المخطوط القرمزي بطرائق فنية تدل على حنكة الكاتب في السرد منها :

١- الدقة في الوصف : وإذا كان التاريخ يصوغه ويكتبه المنتصرون فان أنطونيو غالا مؤلف المخطوط القرمزي . يرى عكس ذلك. فقد أراد أن يكتب تاريخ هذه الحقبة من المحنة الأندلسية في قالب قصصي يجمع بين الدقة والحياد الموضوعي والتخييل الذي يعنى بما لم تذكره كتب التاريخ، واقتناص التفاصيل وجمعها من المصادر المختلفة والمنابع المتعددة ليركب منها نصاً تمتزج فيه شفافية الرواية، ومرجعية التأليف التاريخي، وغنى السيرة الذاتية بالتحليل والصراع النفسي الداخلي.

٢- السرد المفتون لذاته: ومثل هذا العمل المقترن بتلك الأهداف لا يستطيع أن يتصدى له إلا كاتب جمع إلى القدرة على التخيل والسرد المتدفق قدرةً أخرى على استقصاء الحوادث ،وتفسير التاريخ ورؤية مالا يرى عبر مئات الآلاف من الصفحات التي سودتها أقلام المؤرخين، والأخبار التي روتها ألسنة الرواة والإخباريين، وهذا، فيما يبدو لنا، من النظر الأول، هو الذي يتصف به كاتب هذه الرواية. فعلى كثرة ما كتب عن هذه الحقبة بالعربية وغير العربية، ابتداءً بقصص الحمراء لواشنطن آرفنج وانتهاء برواية في ظلال الرمان لطارق علي وغرناطة لرضوى عاشور فإن هذه الرواية لجأت إلى طريقة في السرد لم يلجأ إليها كاتب آخر. وتعتمد هذه الطريقة أسلوب "السيرة الذاتية" للبطل. فقد تخيل أنطونيو غالا كاتباً ضمنياً متماهياً في شخصية آخر سلاطين الأندلس وجعل هذا المؤلف الضمني يواصل من خلال هذا الكتاب كتابة يومياته أو مذكراته أو بكلمة أدق سيرته الذاتية. وبذلك تتوارى شخصية المؤلف الحقيقي وراء هذا المؤلف الضمني فيعفي نفسه إعفاءً تاماً من التدخل في السرد ويبسط أمام المؤلف الضمني مساحة كبيرة للتأمل في تفسير الأحداث وتتابع الوقائعفي لغة عذبة شعرية لكاتب جمع بين براعة الأداء ودقة الوصف وسلاسته.

٣- المونولوج الداخلي للإثارة والتشويق ومشاركة القارئ والبوح المسكوت عنه مفي هذا المخطوط يطلعنا أبو عبدالله على الكثير عبر المونولوج الداخلي يقول: ربما لن يعني لأحد أن يرى انني كنت أفضل تشخيص لشعب حكم عليه بأن يغادر الفردوس. لقد ظللت تابعاً فترة أطول ما كنت ملكاً، وبقيت في المنفى أكثر مما جلست على العرش فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً سلّمت مفاتيح بيتي. (يقول أبو عبدالله هذا الكلام وهو في الرابعة والستين من عمره، وكان عمره عندما ترك غرناطة واحداً وثلاثين عاماً). وهكذا كانت هذه الحقبة التاريخية في رواية المخطوط القرمزي يوميات أبي عبد الله

الأصغرآخر ملوك الأندلس محطة هامة استثمرها الكاتب الإسباني أنطونيو غالا بحنكة ودربة عالية ؛ لتسليط الضوء على الوعي الثقافي للإسبان عن مكامن التراث الأندلسي وكنوزه ثم سرده بطريقة تدل على مهارة الكاتب لصنعته السردية.

رابعا :مستخلص البحث .

الأندلس ستظل حية في وجدان كل عربي وكل إسباني وقد أضحى الفردوس المفقود مطلبا حضاريا للمستشرقين الإسبان وجهودهم المستمرة في الحفاظ على كل ما يخص الأندلس دليل على أن الذاكرة الأندلسية تأبى النسيان ،كما وجدنا في رواية المخطوط القرمزي التي أعادت إلينا صوراً أندلسية شتى إلى الذاكرة المعاصرة.

خامسا: الخاتمة ونتائج البحث.

١- أكد البحث على جهد المستشرقين ودقة منهجهم ووعيهم بالتراث العربى والعناية به ولم يبخلوا بأى مرجع، وكانوا يسدون لنا النصائح ويوجهوننا إلى الطريق القويم.

٢-تناول البحث مجموعة شعراء مثل:كونت بواتييه، ،وبوكاشيو، ودانتي،وبترارك وغيرهم، حيث نجد في أشعارهم أصداء التأثر بالأدب العربي االأندلسي.

٣-كشف البحث عن الشاعر خوان رامون خمينث وإطلاعه على الشعر الأندلسي وتأثره الكبير به هو والشاعر الإسباني "أدلفوا بيكر"من إشبيلية الذي يعد أبو الشعر الحديث في إسبانيا .

٤- برهن البحث كيف ارتقت الحضارة الإنسانية فى تطورها من خلال الأخذ والعطاء والتأثير المتبادل. فكان انتقال الشعر الى أوربا ليس عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والإسبانية فقط وإنما من انصهار سكانها فى بوتقة الحضارة العربية .

٥-كشف البحث عن أهم المدارس الإستشراقية الإسبانية المعاصرة وجهود المستعربين الإسبان في حفظ التراث الأندلسي بل وعشقهم له ودراستهم له عن ما عداه من الآداب الأخرى .

٦- أثبت البحث أن معجم النص كان ثريا ومتعدّدا في رواية المخطوط القرمزي لأنطونيو غالا ؛ حيث ينم ذلك عن ثراء في خلفية فكرية يمتلكها الروائي من فلسفة ومعرفة وطرق منهجية في التعامل مع الأشياء، كما أنّ ذلك يعبّر عن نمط مميز في الكتابة.

سادسا : قائمة المصادر والمراجع

أولا المراجع العربية

١- أحمد الحوفى، الغزل في الشعر الجاهلي، بيروت، دار القلم، ط١، ١٩٦١.

٢- حامد أبو أحمد: دراسات في الأدب المقارن،القاهرة،ط١، ,٢٠٠٣

٣- حامد أبو أحمد: رائد الشعرالإسباني الحديث خوان رامون خمينيث، القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤- داود سلوم ،دراسات في الأدب المقارن التطبيقي،بغداد،دار الحرية للطباعة،ط١، ١٩٨٤.

٥-ابن الزقاق:ديوانه، ت: عفيفة محمود ديراني، بيروت، دار الثقافة، ط١، ١٩٦٤.

٦-ابن زيدون،ديوانه،ت:شرح وتعليق: كامل كيلاني،عبد الرحمن خليفة،مطبعة البابي الحلبي،ط١٩٣٢،١م.

٧- صابر عبد الدايم: الأدب المقارن بين التراث والمعاصرة،القاهرة،،دار الكتاب الحديث، ط١، ٢٠١٠.

٨- الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، القاهرة، دار المعارف ط٣، ١٩٨٧,

٩- عبد العزيز عتيق،،في النقد الأدبي، ،بيروت،دار النهضة العربية،،ط ١ ،١٩٧٢

١٠-عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥,

١١- يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨.

ثانيا المراجع المترجمة:

١٢- خوليو رييس روبيو ،الأندلس بحثا عن الهوية الغائبة ،ت: غادة عمر طوسون ورنا أبو الفضل ،القاهرة، المركز القومي للترجمة ، الطبعة: الأولى ٢٠١٤م.

١٣-آنخل بالنثيا:تاريخ الفكر الأندلسي، ت: د. حسين مؤنس، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية ط١ ,١٩٥٥

١٤- أمبرتو إيكو ، آليات الكتابة السردية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الحوار، سورية ، ٢٠٠٩ .

١٥- أنطونيو غالا ،المخطوط القرمزي يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس، ، ترجمة رفعت عطفة، ورد للنشر، سوريا،ط١ ، ٢٠١١م.